# الباب الثالث
## القصص والإصلاح الاجتماعي

obeikan.com

obeikan.com

# الفصل الأول

## موضوع إبراء ساحة المظلوم

### من خلال قصة (يوسف) عليه السلام

لقد تناول الشعراوي موضوعًا اجتماعيًّا مهمًّا له مردوداته على المجتمع الإنساني، وذلك على مستوى الفرد، وكذا على مستوى المجتمع، فتناول موضوع «ضرورة أن يُبَرِّئ المظلوم ساحته» ولقد فجر أحد مشاهد قصة يوسف – عليه السلام – هذا الموضوع عند الشعراوي، من خلال خواطره حول قول الله تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)[1]

---

[1] سورة يوسف، الآيات: ٥٠-٥٢.

فعندما كان يوسف – عليه السلام – بالسجن، وعبَّر للملك رؤياه التي عجزت حاشيته أن تفتيه فيها «ورجع الرسول الذي أرسلوه إلى يوسف، الذي قال: (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) فأخبرهم بتأويل رؤيا الملك عن يوسف، علم الملك حقيقة ما أفتاه به من تأويل رؤياه وصحة ذلك، وقال الملك: ائتوني بالذي عبَّر رؤياي هذه»[1] وهنا وقف الشعراوي محللًا لموقف يوسف – عليه السلام – حينما امتنع عن الخروج من السجن، قبل أن يتقصى الملك في أمره الذي ظُلِمَ فيه، وأن تتم تبرئته عن بينةٍ وحق، وعرض الشعراوي لعدد من الموضوعات، وناقشها من خلال هذا الموضوع، وذلك من وحي الأفكار الآتية:

(أ) ضرورة إبراء المظلوم ساحته.

(ب)حماية المرء نفسه من مواقف الريبة والشبهات.

(ج) الإحسان إلى المسيء نفع للمجتمع وإعانة له على الخير.

**(أ)ضرورة أن يُبَرِّئ المظلوم ساحته:**

لقد استوقف الشعراوي رفض يوسف – عليه السلام – الخروج من السجن قبل أن يحقق الملك في أمر التهمة التي نسبت إليه من امرأة

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٧/ص٢٣٢.

العزيز ظلمًا وبهتانًا، ونجم عنها دخوله السجن وتشويه سمعته. يقول الشعراوي: «فبعد أن عرض لنا القرآن عجز الحاشية عن الإفتاء في أمر الرؤيا، وتقديم الساقي طلبًا لأن يرسلوه كي يُحْضِرَ لهم تأويل الرؤيا، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقي...هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث، بعد أن عَلِمَ المَلِكُ بتأويل الرؤيا، فيقول سبحانه: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)[1] ..وعاد الساقي ليُخْرِجَ يوسف من السجن...لكنه فوجئ برفض يوسف للخروج من السجن»[2]

وعند هذه اللقطة التي تدافعت المشاهد عندها تلو بعضها، نجد الشعراوي يستثمر هذا المشهد، ويُلْقِي بالضوء على المعنى الذي يشغل باله، وهو تجسيده لضرورة أن يسعى المظلوم لإبراء ساحته؛ لأنَّ التقاعس في مثل هذه الأمور ينجم عنه آثار سلبية في محيط مجتمعه الذي يعيش فيه، وعلى كل إنسان أن يحافظ على طُهر سيرته في حياته الاجتماعية، حتى يتقي ألسنة الناس، ويأمن من إشاعة السوء به. يقول الشعراوي: «وهكذا حرص يوسف – عليه السلام –

---

[1] سورة يوسف، الآية: ٥٠.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٢.

ألا يستجيب لمن جاء يخلصه من عذاب السجن الذي هو فيه، إلا إذا برئت ساحته براءةً يعرفها الملك، فقد يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك وأراد يوسف – عليه السلام – بذلك أن يُحَقِّقَ الملكُ في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ودعونه إلى الفحشاء»[1]

وذكر ابن عطية أنَّ يوسف – عليه السلام – قد اتخذ هذا الموقف حتى يدفع بالملك للبحث عن الحقيقة في أمره. فيقول في قوله تعالى: «(مَا بَالُ النِّسْوَةِ) ومقصد يوسف – عليه السلام – إنما كان وقل له: يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري، هل سجنت بحق أو بظلم...»[2] ولذلك قال يوسف للساقي: (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ...الآية)[3] «أي إلى صاحبك، ورب الشيء صاحبه»[4] (فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ...الآية)[5] «أي اسأله أن يستعمل حجة براءتي مما قرفت به»[6]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٢-٦٩٨٣.

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣/ص٢٥١.

[3] سورة يوسف، الآية: ٥٠.

[4] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٣/ص١١٤.

[5] سورة يوسف، الآية: ٥٠.

[6] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٣/ص١١٤.

لقد حرص الشعراوي على توضيح ما يحتاجه الاجتماع الإنساني من آداب، والتي منها ما ورد في قصة (يوسف) عليه السلام.

ولا يمكن القول بأنَّ الشعراوي وحده من المفسرين الذي التفت لهذه الآداب الاجتماعية، وإنما كانت هناك إشارات حول هذا في كتب التفاسير، ولكنها إشارات سريعة وموجزة، بينما ناقشها الشعراوي في سياق موضوع يحاول أن يفعله من خلال طرح حيثيات مهمة تكتنفه ومناقشتها؛ ولذلك فقد كان تناوله للموضوع مختلفًا؛ نظرًا لاختلاف وضعه عن غيره من المفسرين، سواء كانوا من السابقين أو المعاصرين، فالشعراوي – كما نعلم – لم يعمد إلى كتابة تفسير، وإنما فسَّر القرآن من خلال أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، وبالتالي كانت هناك موضوعات تحظى لديه بالرعاية حينما يتناول بالتفسير القصص القرآني، الذي يحمل في طياته موضوعات مهمة، من بينها موضوعات اجتماعية تفيد الاجتماع الإنساني، فنراه متى لاح له أي موضوع مما يراه جدير بأن يذكر، ينساق مع الفكرة مستغلًّا ما بين يديه من قصة؛ ليوجه بها آلاف الجماهير إلى المعاني التي يرنو إلى تأصيلها في نفوس مريديه، ولأجل هذا اختلف الشعراوي عن غيره من المفسرين.

ولا بُدَّ أن أشير إلى أنَّ الشعراوي عند هذا المشهد من قصة يوسف – عليه السلام – وقف بنا وقفة؛ ليرسم من خلالها بعض الملامح العامة لوظيفة القصة القرآنية في حياة المجتمع الإسلامي، وذلك

بما تحمله من دروسٍ وعبر ومواقف تحمل في حناياها معالجات لموضوعاتٍ مختلفة، منها معالجات لموضوعات اجتماعية مهمة ومؤثرة، وكذلك حتى يلفت الشعراوي - من خلال هذا إلى - أهمية الموضوع الذي يعالجه من خلال القصة. يقول الشعراوي: «وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العبرة التي تخدمنا في واقع الحياة، فليست تلك القصص للتسلية، بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة»[1]

ثم يعود الشعراوي إلى معالجته منبهًا أصحاب المهمات وغيرهم، الذين يوُكَّل إليهم بعض الأعمال والمهام...بضرورة السعي إلى إبراء ساحتهم من أي سوء؛ وذلك حتى لا تعوقهم عن إنجاز مهامهم في حياتهم، وحتى لا يتكالب ويتذاءب الناس عليهم حقدًا أو حسدًا أو استغلالًا للظروف، وهم في حقيقة الأمر مُبرَّءون عن التهم التي تلصق بهم. يقول الشعراوي: «وبراءة ساحة أي إنسان هو أمر مهم؛ كي تزول أي ريبة من الإنسان قبل أن يُسْنَدَ إليه أي عمل»[2] فإثبات براءة المظلوم أمر حتمي وضرورة اجتماعية؛ حتى تستقيم حياته بين جموع الناس التي ألفت الحديث عن سير الناس، وترويج السوء منه إذا ما شاع عنهم، وعلى وجه الخصوص من سلطت

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٣.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٣.

عليهم الأضواء فاعتلوا مناصب أو مراكز مرموقة في المجتمع الإنساني، ولذلك يقول الشعراوي: «وهكذا طلب يوسف - عليه السلام - إبراء ساحته، حتى لا يقولنَّ قائل في وشاية أو إشاعة «همزًا أو لمزًا» أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز، وهو من راودته عن نفسه»[1]

ويؤكد ما ذهب إليه الشعراوي ما ذكره الزمخشري قائلًا: «..وفيه دليل على أنَّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها...»[2]

ثم استحضر الشعراوي من السنة النبوية المشرفة، ومن النص القرآني الكريم، ما يدعم به معالجته الآنفة؛ لكي يؤكد على هذا المبدأ في أدب الاجتماع الإنساني، وهو ضرورة إبراء ساحة المظلوم، والمتجسد معنا في صبر سيدنا يوسف - عليه السلام - على المكوث في السجن إلى أن يتوصل الملك إلى براءته وطُهْرِه مما نُسِبَ إليه، فسعى إلى تأصيل أفكار موضوعه، من خلال الحديث النبوي والسيرة النبوية، فاستشهد بالأقوال التي وردت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - تمتدح سيدنا (يوسف) عليه السلام. يقول الشعراوي: «وها هو رسولنا صلى الله عليه وسلم

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٣.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج٢/ص٤٥٩.

يقول: «عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه – والله يغفر له – حيث أرسل إليه ليُستَفتَى في الرؤيا، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبتُ من صبره وكرمه – والله يغفر له – أُتِيَ ليخرج فلم يخرج، حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب، ولكنه أحب أن يكون له العذر»[1] وشاء نبينا أن يوضح مكانة يوسف[2] – عليه السلام – من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ: «إنَّ الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قال: لو لبثتُ في

---

[1] لقد ورد هذا الحديث في صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ما جاء في سورة يوسف، بلفظ: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي...» ج٦/ص٥٧٩.

ولقد ورد هذا الحديث عند الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» كتاب التفسير، باب ما جاء في تفسير سورة يوسف، ج٧/ص٣٩-٤٠، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، وذكر أنَّ هذا الحديث «رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك» ج٧/ص٣٩-٤٠.

[2] لقد ورد في العهد القديم أنَّ يوسف – عليه السلام – حينما استدعاه الملك خرج، ولم يرفض دعوة الملك، وهذا مخالف لما ذكر في القرآن الكريم، فقد ورد في العهد القديم: «(١٤) فأرسل فرعون ودعا يوسف، فأسرعوا به من السجن، فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون (١٥) فقال فرعون ليوسف: حلمت حلمًا وليس من يُعَبِّره، وأنا سمعت عنك قولًا إنك تسمع أحلامًا لتُعَبِّرها (١٦) فأجاب يوسف فرعون قائلًا: ليس لي الله يجيب بسلامة فرعون» العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الحادي والأربعون.

السجن ما لبث، ثم جاءني الرسول أجبت[1]، ثم قرأ ﷺ (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ..الآية)»[2]

وربما ظهر في سوق هذه الأحاديث إشكالية أشار إليها الشعراوي، وهي ما ورد في قول الرسول ﷺ: «لو لبثتُ في السجن ما لبث، ثم جاءني الرسول أجبت...». يقول: «هذا القول من الرسول ﷺ إشارة إلى مبالغة يوسف في ذلك الأمر، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن، ثم يعمل على كشف براءته»[3]

ولقد فصل ابن عطية في رده لهذه الإشكالية، فقد قال بداءةً: «وهذا اعتراض ينبغي أن ينفصل عنه، وذلك أنَّ النبي ﷺ إنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف، فما باله هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره...»[4]

---

[1] مسند الإمام/ أحمد، ج٢/ص٣٣٢، أخرجه أحمد في مسنده من حيث أبي هريرة، حديث رقم ٥١١٩، ط. دار صادر بيروت.

وورد هذا الحديث أيضًا في صحيح البخاري في كتاب التفسير، باب ما جاء في سورة يوسف، بلفظ: «عن النبي ﷺ قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين» ج٧/ص٥٧٧.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٣-٦٩٨٤.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٤.

[4] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣/ص٢٥٢.

ثم أضاف ابن عطية لتعليقه السابق تعليقًا آخر يقرب من تعليق الشعراوي، غير أنه يمكننا القول بأنَّ تعليق ابن عطية على هذه المسألة أكثر استيفاءً وتوضيحًا للمرامي الحقيقة التي يعنيها قول الرسول صلى الله عليه السابق. يقول ابن عطية: «..وذلك أنَّ هذه القصص والنوازل إنما هي مَعْرَضَةٌ ليقتدي الناس بها إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور، وذلك أنَّ المتعمق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما تنتج له من ذلك البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف – عليه السلام – أمن من ذلك بعلمه من الله – تعالى – فغيره من الناس لا يأمن ذلك»[1]

وهكذا فقد جمع ابن عطية في كلامه بين مدح الرسول ﷺ (ليوسف) عليه السلام، وبيَّن إرشاده للناس وتوجيههم إلى ما هو الأولى والأحرز فعله.

ثم ذهب الشعراوي ممتدحًا لموقف يوسف – عليه السلام – في تَأَنِّيه وصبره؛ حتى تظهر براءته أمام الملك والناس أجمعين مما أُحيقَ به، وكذا ممتدحًا لحسن تفكيره وتدبيره، إذ لم تأخذه حمية أن يدفع الظلم عنه إلى أن يعجل في أي أمر دون تفكير بترو فيه، والنظر في

---

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣/ص٢٥٢.

عاقبته إلى ماذا سيؤول الأمر إليه، ويُطري الشعراوي من خلال ذلك على كل عاقل يحسن استغلال نعمة عقله. يقول: «الكريم لا يستغل المواقف استغلالًا أحمقًا، بل يأخذ كل موقف بقدره ويرتب له، وكان يوسف واثقًا من براءته، ولكنه أراد ألا يكون الملك آخر من يعلم»[1]

فالشعراوي من خلال تعميمه للمعنى، ثم العود به إلى القصة ومزجهما ببعض، هو توظيف جيد للقصة ومُرَادَاتِها في معالجة الموضوع لهذه المسألة المهمة في المجتمع الإسلامي، وكذلك في المجتمع الإنساني بشكلٍ عام، فكلمات الشعراوي السابقة تدفع بالجمهور إلى ضرورة استخدام العقل في كل المواقف التي يمر بها الإنسان في حياته، من حيث حُسن دراسة الموقف الذي يعتري أي إنسان من جميع جوانبه، ولذلك كان سيدنا يوسف – عليه السلام – مثالًا جيدًا على تجسيد هذه الصورة النموذجية الرائدة، ولذلك فقد وصف الرازي ما فعله يوسف – عليه السلام – بأنه هو «اللائق بالحزم والعقل»[2]

ثم ذكر الرازي في بيان هذا وجوهًا عدة، منها أنَّ الإنسان الذي ظَلَّ صابرًا كل ذلك الوقت في السجن متكبدًا تعبه، ومتحملًا ذاك الظلم الواقع عليه، فإذا ما تيسرت له فرصة الخروج فلم يخرج

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٤.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩/ص٧٣.

«عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات، وذلك يصير سببًا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم، ولأن يحكم بأنَّ كل ما قيل فيه كان كذبًا وبهتانًا»[1]

ولقد ذكر ابن العربي أنَّ يوسف – عليه السلام – أحسن استخدام عقله، ولم يستغل الموقف، ولبى الخروج في الحال، وذلك «...لئلا ينظر إليه الملك بعين الخائن، فيسقط في عينه، أو يعتقد له حقدًا، ولم يتبين أنَّ سجنه كان جورًا محضًا، وظلمًا صريحًا»[2]

إذن ما أثاره الشعراوي من الملامح الاجتماعية التي تناولها، قد رأينا أنَّ لها جذورًا في التراث الإسلامي الفكري، غير أنه فصَّل في المضمون، وأسهب في المعالجة بطريقة تتناسب والجمهور المخاطب، وبأسلوب يلائم حاجة الناس، من حيث إثارته لبعض الأفكار والتطرق إلى معالجتها.

**(ب) حماية المرء نفسه من مواطن الريبة والشبهات:**

ثم اتجه الشعراوي من وحي هذه المعالجة إلى مسألة يقتضيها سياق الموضوع، وهي ضرورة أن يقي المرء نفسه مواطن الشبهات، وحديثه عن هذه المسألة هو توظيف للعِبَرَة من القصة في واقع المجتمع الإسلامي والإنساني بشكلٍ عام، وبخاصة في مجتمعات مثل

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩/ص٧٣.

[2] ابن العربي، أحكام القرآن، ج٣/ص١٠٩١.

مجتمعاتنا تُعد فيها سيرة المرء مسألة جوهرية، يعول عليها العديد من الأمور التي تمس المرء بشكلٍ قويٍّ لا يمكن أن يغفل عنها؛ لأنَّ لها تأثير عام في سائر حياته بأسرها، قد يصل إلى حد تدميرها أو نجاحها.

وربط التفسير القرآني بواقع المجتمع، يُعد من أهم ملامح – كما قال محمد باقر الصدر[1] – التفسير الموضوعي، من حيث تفعيل الموضوع القرآني بالواقع الإنساني، وربط موضوع القصة بواقع المجتمع في نسيجٍ واحد متضافر...وهذا من منطلق أنَّ القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى «وكتاب دعوة دينية أولًا وقبل كل شيء، وفي تضاعيف السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحًا، ويستبين منهجها الذي تحد البشرية إليه لا يختلف وإن اختلفت العصور – وإنك لتسمع إليهم واحدًا بعد الآخر – فيما سجل القرآن من وصاياهم ونصائحهم وإرشادهم لأمم، فنجد كلامًا منسقًا، وهديًا منسجمًا صدر من مشكاةٍ واحدة، وانساق إلى هدفٍ واحد يُمَهِّدُ أوله لآخره، وتُصَدِّقُ نهايته بدايته»[2]

---

[1] محمد باقر الصدر، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، انظر ص٢٧.

[2] محمود السيد حسن مصطفى، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، تقديم أ. د/ حسن عون، ص١٤٥، ط. مؤسسة شباب الجامعة.

ولأجل هذا رمى الشعراوي بظل هذا المشهد من قصة يوسف – التي بين أيدينا – على واقع المجتمع الإسلامي، إدراكًا منه لوظيفة القصة القرآنية في إصلاح المجتمع الإسلامي مما قد يعتريه من مشكلات، فاتجه إلى تأصيل هذا المبدأ الإسلامي، وهو ضرورة أن يقي المرء نفسه مواطن الشبهات، من خلال الشواهد النبوية التي من شأنها تدعيم ما ذهب إليه من مضامين. يقول الشعراوي: «وصدق رسولنا ﷺ حين قال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنَّ الصدق طمأنينة، وإنَّ الكذب ريبة»[1]»[2]

ثم يخاطب الشعراوي جمهوره موجهًا إياه من وحي هذا الحديث النبوي إلى تعميق القضية أكثر، ووضعها في إطارٍ أكبر...كمبدأ أخلاقي عام لكل المؤمنين في كل العصور، وهو أن ينأى

---

[1] أخرجه الإمام/ أحمد في مسنده، كتاب الأخلاق، باب الأفعال الحميدة، ج١/ص٢٠٠.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٥.

لقد أشار إلى هذا المعنى بعض المفسرين، من خلال شرحهم لهذا المشهد في قصة (يوسف) عليه السلام، وهو ضرورة أن ينأى الإنسان بنفسه عن مواقف الريبة؛ حتى يأمن من إساءة الظن به، ولم أذكرها جميعًا تحرزًا من التكرار، ومن هذه التفاسير:

ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، انظر ج٣/ص٢٥١-٢٥٢.

الطبرسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، انظر ج٥/ص٣١٩.

البغوي، معالم التنزيل، انظر ج٢/ص٣٦١-٣٦٢.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، انظر ج٤/ص٣١٩.

الخازن، لباب التأويل في معني التنزيل، انظر ج٣/ ص٢٣.

المؤمن بنفسه عن مواطن الشبهات. يقول الشعراوي: «فعليك أن تحتاط لنفسك بألا تقف موقف الريبة، والأمر الذي تأتيك منه الريبة، عليك أن تبتعد عنه»[1] وبعد هذا التأصيل النظري من الشعراوي يأتينا بوقعة قد حدثت في حياة النبي ﷺ، كي يؤصل بها المبدأ السابق، ويبثه في نفوس جمهوره كمرجعية دينية ثابتة مضفرًا إياها مع المعنى القرآني، فسيتحضر هذه المروية كمثل حي من حياة النبي ﷺ الأسوة والقدوة. يقول الشعراوي: «ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد جاءته زوجه صفية بن حيي تزوره، وهو معتكفًا في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة من العشاء، ثم قامت تنقلب – أي تعود إلى حجرتها – فقام معها رسول الله ﷺ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ، مر بهما رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ﷺ ثم نفذا، فقال لهما رسول الله ﷺ: «على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي، قالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما ما قال، قال: إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما»»[2][3]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٥.

[2] البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الصوم، باب الاعتكاف، ج٣/ص٥٠٨.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٥.

ويظهر في تناول الشعراوي للموضوع جمعه في المعالجة بين الشاهد القرآني والشاهد النبوي؛ حتى يحيط بأطراف الموضوع من جميع جوانبه...فلكي يبين أهمية أن يأمن الإنسان على نفسه من مواطن الشبهات، جمع بين موقف يوسف – عليه السلام – وبين موقف رسول الله ﷺ من الرجلين اللذين مرا به ليلًا وهو يحدث زوجته صفية – رضي الله عنها – أمام معتكفه، فاستوقفهما النبي ﷺ وبيَّن لهما حقيقة الأمر لئلا تذهب بهما الظنون مذاهب الهلكة، وبادر إلى إعلامهما «حسمًا للأمر، وتعليمًا لمن بعده إذا وقع له مثل ذلك. قال ابن دقيق العيد: فيه دليل على التحرز مما يقع في الوهم من نسبة الإنسان إلى ما لا ينبغي، وهذا متأكد في حق العلماء، ومن يُقْتَدى بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب ظن السوء بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأنَّ ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم. قال الشافعي: عَلَّمَنَا رسول الله ﷺ إذا حَدَّثَنَا نساءنا أو محارمنا على الطريق أن تقول هي محرمي حتى لا تُتهم»[1]

ومن هنا كان تأكيد الشعراوي لهذا المبدأ المهم، وهو ضرورة أن يحمي المرء نفسه من مواقف الريبة والشبهة، فيكون في نظر

[1] الحافظ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد؟ حديث رقم ٢٠٣٥، ج٦/ص٥١٩.

مجتمعه محط شكوك وشبهات؛ وذلك حتى لا يقع الفرد في حرج اجتماعي ربما أودى به إلى الهلاك، وبخاصة في مجتمعاتنا العربية، والتي تمثل فيها قضية السمعة مسألة كبيرة، ومع ذلك لا ننكر أنَّ هذه القضية الاجتماعية هي ظاهرة إنسانية عامة لا تقتصر على مجتمع دون آخر، سواء في مجتمعاتنا العربية، أو حتى على الصعيد الإنساني، وإن تفاوت حجم تأثيرها في كل مجتمع حسب ثقافته وموروثاته الاجتماعية.

وهكذا خرج الشعراوي عن إطار أحداث قصة يوسف – عليه السلام – بما قد فجره أحد مشاهد القصة من موضوع حيوي يمس الاجتماع الإنساني، فحلق في أجواء المضامين التي تكتنف الموضوع، مستخدمًا موقف يوسف – عليه السلام – كانطلاقه لحديثه مقويًا ذلك بالأحاديث النبوية كوسائل مدعمة لأفكاره حول هذا المبدأ الأخلاقي الاجتماعي المهم.

**(ج) الإحسان إلى المسيء نفع للمجتمع:**

لقد سعى الشعراوي من خلال مشهد إثبات براءة يوسف – عليه السلام – إلى تجسيد مدى الظلم الذي حاق بيوسف، ثم أدب يوسف – عليه السلام – وإحسانه إلى امرأة العزيز، والذي كان سببًا في إعلانها براءة يوسف – عليه السلام – من هذا الإفك العظيم كما يرى الشعراوي، ومن هنا كان حديثه حول ضرورة أن يحسن المجتمع إلى المسيء؛

لإعانته على تخطي مرحلة الخطأ، وإعانته على تمثل الخير، ولقد كان هذا من خلال خواطره حول قوله تعالى: (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)[1]

وفي هذا المشهد من قصة يوسف – عليه السلام – لا بُدَّ وأن نشير إلى أنَّ هناك انتقالًا سريعًا ومفاجئًا من المشهد السابق، والذي يصور رفض يوسف – عليه السلام – الخروج من السجن، حتى يتحقق الملك من أمر التهمة التي ألصقت به بهتانًا وظلمًا، إلى الانتقال مباشرةً لمشهد استدعاء الملك للنسوة، والتحقيق في الأمر، وهذا الانتقال السريع بين أحداث المشهدين نجم عنه حذف بعض المشاهد في القصة، ويشير الشعراوي أحيانًا إلى الحذف في القصة[2]، وأحيانًا لا يشير.

---

[1] سورة يوسف، الآية: ٥١.

[2] حينما شرع الشعراوي في خواطره حول الآية ٥١ من سورة يوسف – عليه السلام – أشار إلى الحذف الواقع ما بين الآيات ٤٥ إلى ٤٦ من سورة (يوسف) عليه السلام، ولكن دون ذكر لفائدته. يقول الشعراوي: «ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء في أمر الرؤيا، وتقديم الساقي طلبًا لأن يرسلوه؛ كي يحضر لهم تأويل الرؤيا، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقي» الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٢.

ولقد وقع حذفٌ كبير في المشهد الذي نحن بصدده...«وهذا الحذف الكبير قد تناول أحداثًا كثيرة، تبدأ بالرجوع إلى الملك، ثم إخباره بما قال يوسف واستخبار الملك عن القصة، ثم إرساله في طلب النسوة ومجيئهن ومثولهن بين يدي الملك ليسألهن هذا السؤال عن القصة التي شاعت في المجتمع حوله...»[1] فطبيعة المرحلة التي آلت إليها القصة تدخلت في تشكيل السياق، وتنفيذ المشاهد، وفائدة ذلك كما يقول الظواهري: «أنَّ الحذف يكثر في مرحلة الذروة ليقارب بين الأحداث، ويحفظ عليها إثارتها وتأججها، ويكثف الأحداث بالتركيز والقفز فوق ذراها»[2] فالمشاهد بدت تتصاعد، فاتجهت تنطلق متسارعة في مرحلة خروج يوسف من السجن، وتردد الساقي بينه وبين الملك، ولذلك كانت نوعية هذه المشاهد المتعددة «من النوع المبتور، الذي يقفز السياق فوقه قفزًا، ويتخطى من ذروة إلى ذروة...»[3]

وربما لم يلتفت الشعراوي إلى مسألة الحذف هنا في هذا المشهد؛ لأنَّ القرائن الواردة في القصة تدل على المحذوف دون

---

[1] كاظم الظواهري، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص١٧٦-١٧٧.

[2] كاظم الظواهري، بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص١٧٧.

[3] المصدر نفسه، ص١٧٧.

حاجة للذكر، ولقد ذكر هذا الطبري حينما أشار إلى أنه يوجد في هذا المشهد «كلام متروك قد استغنى بدلالة ما ذكر عليه عنه...»[1]

وكذلك لم يشر إليه الشعراوي لاشتغاله بحيثيات الموضوع الذي يريد أن يكمل به بناء أفكاره، وحتى لا يشتت السامع له بهذه التفاصيل عن المضمون الذي عكف على تجليته لجمهوره.

وفي ظل هذا المشهد عاد بنا الشعراوي إلى أوائل القصة منذ بدايتها؛ ليستدعي من خلال جملة المواقف التي تعرَّض لها (يوسف) عليه السلام؛ حتى يجسد لنا فداحة وعظم ما تعرَّض له (يوسف) عليه السلام. يقول الشعراوي: «..ونعلم أنَّ المراودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز، واستعصم يوسف، ثم دعت هي النسوة إلى مجلسها، وقَطَّعْنَ أيديهن حين فوجئن بجمال (يوسف) عليه السلام، وصدرت منهن إشارات، ودعوات إثارة وانفعال، قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه وتعالى: (إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[2]، واستدعاهن الملك، وسألهن: (مَا خَطْبُكُنَّ...الآية)[3]»[4]

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٧/ص٢٣٤.

[2] سورة يوسف، الآية: ٣٣.

[3] سورة يوسف، الآية: ٥١.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٦.

ثم يقف بنا الشعراوي عند استخدام القرآن لكلمة (خطب) وانعكاساتها على تصوير المعنى في الآية، وذلك بالنظر في استعمال النص القرآني لكلمة (الخطب) حتى يشعرنا من خلاله بصعوبة وبشاعة الموقف، فيتعدَّى بالجمهور من مرحلة الاستماع فحسب، إلى مرحلة تحريك وإثارة مشاعرهم، لدرجة إيصالهم إلى قمة الإحساس المنفعل بالمشهد، حتى كأنهم يعايشوه ويشاهدوه. يقول الشعراوي: «والخطب: هو الحدث الجل، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس، فهو ليس حديثًا بينهم وبين أنفسهم، بل يتكلمون عنه بحديثٍ يصل إلى درجة تهتز لها المدينة؛ لأنَّ مثل هذا الحادث قد وقع»[1]

وبعد أن أيقظ الشعراوي مشاعر جمهوره بخطورة الموقف، اتجه بهم إلى عرضه لاستعمالات القرآن للكلمة، حتى يستزيدها وضوحًا وتأثيرًا. يقول الشعراوي: «..ولذلك نجد إبراهيم – عليه السلام – وقد قال لجماعة من الملائكة: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)[2] أي: أنَّ الملائكة طمأنت (إبراهيم) عليه السلام، فهي في مهمة لعقاب قوم مجرمين، وموسى – عليه السلام

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٦.

[2] سورة الذاريات، الآيتان: ٣١، ٣٢.

– حين عاد إلى قومه، ووجد السامري قد صنع لهم عجلًا من الذهب الذي أخذوه من قوم فرعون، نجده يقول للسامري: (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)[1] وقول الملك هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: (مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ...)[2] يدل على أنه سمع الحكاية بتفاصيلها، فاهتز لها واعتبرها خطبًا مما يدلنا على أنَّ القيم هي القيم في كل زمانٍ وفي كل مكان»[3]

ولقد تأثر الشعراوي بتعريف الأصفهاني، وكذلك بالنماذج التي استشهد بها. يقول الأصفهاني في تعريف الخطب بأنه هو «الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب»[4] والأصفهاني – كما هو معروف – من أوائل من صَنَّف كتابًا في موضوع خاص من موضوعات القرآن الكريم، فصَنَّف كتابًا خاصًّا بمفردات القرآن الكريم، وأدى ذلك إلى تأثر الشعراوي بهذه الطريقة في التفسير.

وهكذا جَسَّد الشعراوي هذا الأمر الجلل الذي تعرض له يوسف – عليه السلام – من خلال رصده لاستعمال القرآن للفظة

---

[1] سورة طه، الآية: ٩٥.

[2] سورة يوسف، الآية: ٥١.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٧.

[4] الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٨٦.

(الخطب) ليظهر من خلال ذلك أحد أدوات التصوير في البيان القرآني، وهو التصوير بالكلمة.

ويترك الشعراوي باقي تفاصيل الآية موضحًا إياها فيما لا يتعدى سطرين، ثم يقف بنا عند اعترافات امرأة العزيز في قوليها – كما يرى الشعراوي – كما حكى القرآن الكريم: (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ...)[1] و(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)[2]، فلقد اعتبر الشعراوي أنَّ هذه الآية الأخيرة هي من أقوال امرأة العزيز، وفي هذا الأمر خلاف قد أشار إليه الرازي في تفسيره، وقال: «فيه قولان؛ القول الأول: وهو قول الأكثرين: أنه قول (يوسف) عليه السلام... والقول الثاني: أنه كلام امرأة العزيز...»[3] وكدأب الشعراوي ألا يطرح خلافًا في التأويل على عامة الناس، ويحسم هذا الخلاف بانتخابه لرأي من جملة آراء العلماء فيه، ويظهر لنا أثر اختياره لهذا الرأي في سلسلة بناء موضوعه، ولقد اختار الرأي الذي يقول بأنَّ هذا القول من أقوال

---

[1] سورة يوسف، الآية: ٥١.

[2] سورة يوسف، الآية: ٥٢.

[3] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩/ص٧٦-٧٧.

امرأة العزيز، رغم أنَّ أغلب العلماء[1] على أنها من أقوال (يوسف) عليه السلام، ويؤيد هذا الذي ذهب إليه الشعراوي ما أكده ابن كثير، الذي

---

[1] يقول الطبري في قوله تعالى: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ...الآية) «...يعني...هذا الفعل الذي فعلته، من ردي رسول الملك إليه، وتركي إجابته والخروج إليه، ومسألتي إياه أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن شأنهن إذ قطعن أيديهن، إنما فعلته ليعلم أني لم أخنه في زوجته (بالغيب) يقول: لم أركب منها فاحشة في حال غيبته عني، وإذا لم يركب ذلك بمغيبه، فهو في حال مشهده إياه أحرى أن يكون بعيدًا من ركوبه...» الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٧/ص٢٣٥.

ويقول الزمخشري في ذلك: «هذا من كلام يوسف، أي ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ) بظهر الغيب في حرمته»، الزمخشري، الكشاف، ج٢/ص٤٦١.

ويقول الطبرسي في ذلك: «... هذا من كلام يوسف ...»، الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥/ص٣٢٠.

ولقد ذكر القرطبي قولًا طويلًا في هذه المسألة: «... إذا احتمل أن يكون من قول المرأة، فالقول به أولى حتى نبرئ يوسف من حل الإزار والسراويل، وإذا قدرناه من قول يوسف، فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدمناه من القول المختار في قوله: (وَهَمَّ بِهَا)، قال أبو بكر الأنباري: من الناس من يقول: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) إلى قوله: (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) من كلام امرأة العزيز؛ لأنه متصل بقولها: (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)، وهذا مذهب الذين ينفون الهم عن يوسف – عليه السلام –، فمن بنى على قولهم قال: من قوله: (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) إلى قوله: (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) كلام متصل بعضه ببعض، ولا يكون فيه وقف تام على

يرى أنَّ هذا الكلام مما قالته امرأة العزيز. يقول ابن كثير في قوله تعالى: «(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)...تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي؛ ذلك ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودةً فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة، (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...الآية) تقول المرأة: ولستُ أبرئ نفسي؛ فإنَّ النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته؛ لأنها أمارة بالسوء»[1] ثم يختم ابن كثير كلامه برأيه في هذه المسألة. يقول: «هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام...وقد قيل: إنَّ هذا من كلام (يوسف) عليه السلام...»[2]

---

=حقيقة، ولسنا نختار هذا القول، ولا نذهب إليه، وقال الحسن: لما قال يوسف: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) كره نبي الله أن يكونه قد زكى نفسه فقال: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)، وتزكية النفس مذمومة»، القرطبي، الجماع لأحكام القرآن، ج٥/ص٣٥٤٣-٣٥٤٤.

وكذلك قال الألوسي إلى أنها من قول يوسف – عليه السلام –. يقول: «قال عليه السلام: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ...) العزيز (إني لم أخنه) في حرمته (بالغيب) أي بظهر الغيب ...».

الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٦/ص٤٥.

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤/ص٣٢٠.

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤/ص٣٢٠.

ونعود إلى معالجة الشعراوي...يقول في قوله تعالى: «(قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ[1] الْحَقُّ...)[2] أقرَّت بأنه لم يعد هناك مجال للستر، ووضح الحق بعد خفاء، وظهرت حصة الحق من حصة الباطل...واصلت امرأة العزيز الاعتراف في الآية التالية: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ...الآية)[3]»[4]

ويتجه الشعراوي إلى تصوير تقلبات النفس البشرية، وبالذات حال إلحاح النفس وميلها ورغبتها حيال شيءٍ ما، حيث أنَّ نفوس العباد تأمرهم بما تهواه، وإن كان هواها في غير ما فيه رضى الله تعالى، إلا من رحم الله، ولا أحد يفرُّ من سلطان هوى نفسه عليه أحيانًا، ومن هنا يدعو الشعراوي إلى ضرورة أن نحسن إلى المسيء الذي ربما قد يصرعه هواه فيقترف إثمًا ما...، فلا بُدَّ أن نعينه على تجاوز الخطأ الذي اقترفه بحسن التعامل إليه، واستخلص الشعراوي هذا المعنى من حسن معاملة يوسف – عليه السلام – لامرأة العزيز رغم إساءتها إليه كما سنعرض لهذا مفصلًا.

---

[1] قال الراغب الأصفهاني: حصحص الحق أي «وضح وذلك بانكشاف ما يغمره» الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٣٧.

[2] سورة يوسف، الآية: ٥١.

[3] سورة يوسف، الآية: ٥٢.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٨.

فمن خلال حالة امرأة العزيز يرصد الشعراوي حال النفس البشرية إذا ما اشتهت شيئًا، ثم حالها إذا ما استقرت واتزنت، ولذلك يرى الشعراوي أنَّ اعتراف امرأة العزيز على نفسها بعد كل ذلك الزمن الغابر، دليل على أنَّ «شَرَه الإنسان قد تتوهج لغرضٍ خاص، وحين يهدأ الغرض ويذهب، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالي في نفسه، وقد يجعل من الزلة الأولى في خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف؛ كي تستر الحسنة السيئة، مصداقًا لقول الحق سبحانه وتعالى: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)[1]»[2]

وهكذا عمَّمَ الشعراوي القضية، وانتقل بها من حيز خطأ امرأة العزيز بسبب ميل نفسها إلى السوء عن طريق شهوتها التي قادتها إلى ذلك، إلى نطاقٍ أوسع، وهو توجيه الكلام إلى عامة الناس، من أجل استثماره في حياتهم، فما دام المسيء قد بادر إلى فعل الخير فعلينا أن نحسن إليه ونتأدب معه، وبخاصة لأنَّ كل إنسان «له هواه وشهوته، ومن هواه وشهوته تتكون نفسه الأمارة بالسوء، والمتجهة نحو العبث والفساد والطغيان والاعتداء، ولا يسلم إنسان من سيادة

---

[1] سورة هود، الآية: ١١٤.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٨.

هـواه وشـهواته علـى توجيهـه ودفعـه نحـو الباطـل في الاعتقـاد، والانحراف في السلوك»[1] إلا من رحم الله تعالى، ويؤكد هذا ما ذهب إليـه التسـتري حينمـا فسـر هـذا المشـهد «أنَّ الله – تعـالى – خلـق النفس وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وجعل الهوى الباب الذي يدخل منه هلاك الخلق»[2]

ولأجـل طبيعـة الـنفس البشـرية، دعـا الشـعراوي إلـى ضـرورة الإحسـان إلـى المسـيء، كمـا أحسـن يوسـف إلـى امـرأة العزيـز، فلقـد تعفف يوسف – عليه السلام – أن يخصها بالذكر حينما طلب التحقيق في الأمر لإبراء ساحته، فحملها ذلك على أن تعود إلى صوابها، فتدلي بالحق، وتُبَرِّئ ساحة يوسف – عليه السلام – مما قرفته به من تهم باطلة، وسياق خواطر الشعراوي يدل على هذا دون تصريحٍ منه، ولعله استقى هذا مما أدلى به الرازي حينما أشار قائلًا: «وهنا دقيقة، وهي أنَّ يوسف – عليه السلام – راعى جانب امرأة العزيز، حيث قال: (مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) فذكرهن، ولم يذكر تلك المرأة البَتَّة، فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها، وتعظيمًا

---

[1] د/ محمد البهي، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، تفسير سورة يوسف، ص٣١، ط. مكتبة وهبة.

[2] التستري، تفسير التستري، سورة يوسف، ص٨٢.

لجانبها، وإخفاءً للأمر عليها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن، فلا جرم أن أزالت الغطاء والوطاء، واعترفت بأنَّ الذنب كله كان من جانبها، وأنَّ يوسف - عليه السلام - كان مُبرأً عن الكل[1]، ولأجل تأصيل الشعراوي لهذا المعنى في نفوس جمهوره، وتوضيح انعكاساته على واقع حياتهم الاجتماعية، توجَّه بالحديث إليهم من وحي هذا المعنى المستنبط من القصة، ومراميه الإصلاحية في نماء المجتمع وازدهاره، إذا ما تمثلوا له؛ لأنه قد ينشأ عن الإساءة إلى المخطئ فساد اجتماعي، قد نأمنه إذا أحسنَّا إلى المسيء، وفي ذلك يقول الشعراوي: «لو أنَّ إنسانًا عمل سيئة وفضحه آخر عليها، فالفاضح لتلك السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة، ولذلك أقول: استروا سيئات المسيء؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته»[2]

ومثل ذلك النهج التحليلي الذي عمد إليه الشعراوي من استثماره للقصة القرآنية، وتفجيره من خلال مشاهدها لموضوعات تكتنفها مرامي إصلاحية معينة تفيد المجتمع الإسلامي، ومزج هذا التحليل بمشاهد القصة القرآنية، وربطها بواقع الحياة، هو إدراك

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٩/ص٧٥-٧٦.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٨-٦٩٨٩.

لوظيفة القصة في إصلاح وتقويم النفوس والسلوك على المستوى الإنساني، وتقويم الأفكار والقيم على المستوى الاجتماعي، وكلاهما يفضي إلى الآخر، ولقد استغلَّ الشعراوي هذا الموقف الإنساني الوارد في القصة، وحلله تحليلًا أوضح فيه ما يعتري النفس البشرية من لحظات ضعفٍ ينجم عنها الزلل في الخطيئة، فإذا ما عادت النفس إلى طاولتها بادرت أن تمحو ما نتج عن هذا الضعف من أخطاءٍ بأعمالٍ حسنة، وهذه الهنات لا تصدر عن الأنفس الضعيفة فحسب، بل تصدر كذلك عن أصحاب الأنفس القوية. يقول الشعراوي: «...إذا استقرأت تاريخ الناس، أصحاب الأنفس القوية في الأخلاق والقيم، قد تجد لهم من الضعف هنات وسقطات، ويحاولون أن يعملوا الحسنات؛ كي تذهب عنهم السيئات؛ لأنَّ بال الواحد منهم مشغول بضعفه الذي يلهبه، فيندفع لفعل الخيرات»[1]

لقد أسس الشعراوي مضمون الإحسان إلى المسيء من وحي إحسان يوسف إلى امرأة العزيز، ولم يدل باللطيفة الواردة في القصة صراحة، وهي أدب يوسف – عليه السلام – في الحديث عن امرأة العزيز، كما أشار إلى ذلك المفسرون، فلقد كان يشغله مردودات هذا

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٩.

الموقف الإنساني في إصلاح المجتمع الإنساني، فكان جُلُّ انشغاله بنسج مضمون موضوعه.

ولقد أوضح المفسرون هذه اللطيفة الخلقية من أدب يوسف – عليه السلام – الجم، وألقوا عليها الضوء. يقول الزمخشري في ذلك: «ومن كرمه وحسن أدبه – يوسف – أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به، وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المُقطعات أيديهن»[1] وذكر في هذا ابن عطية أنَّ يوسف – عليه السلام – «نكب عن ذكر امرأة العزيز حسن عشرة ورعاية لزمام ملك العزيز له»[2] وأورد البغوي أنه «لم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبًا واحترامًا»[3] وذكر الطبرسي أنه «لم يفرد امرأة العزيز بالذكر حسن عشرة منه، ورعاية أدب؛ لكونها زوجة الملك...فخلطها بالنسوة»[4]

ولقد أورد الألوسي رأيًا آخر، حول امتناع يوسف عن تخصيصها بالذكر، يقول: «فلم يتعرض – عليه السلام – لامرأة العزيز مع أنها الأصل الأصيل لما لاقاه...احترازًا عن مكرها، حيث اعتقدها

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج٢/ص٤٦٠.

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣/ص٢٥١.

[3] البغوي، معالم التنزيل، ج٢/ص٣٦١.

[4] الطبرسي، مجتمع البيان في تفسير القرآن، ج٥/ص٣١٩.

باقية في ضلالها القديم»[1] فهذه بعض نماذج مما أدلى به العلماء في مسألة أدب يوسف – عليه السلام – في الحديث عن امرأة العزيز.

وننتهي إلى أنَّ الشعراوي ما كان يقف عند حدود كلمات الآية، وما كان يقف عند حدود حوادث اللقطة في القصة، وما كان يقف عند حدود المشهد، ليكون هذا هو منتهى ما ترنو إليه أفكاره حول الآية، بل كان يتخطى كل ذلك، فهو دومًا مستغل جيد لوسيلة القصة القرآنية في إصلاح سلبيات المجتمع، لذا فهو لا يقف عند كل تلك الحدود؛ لأنه يُحلِّق فوق الكلمات والعبرات واللقطات...وينهل من رحيقها ما يراه علاجًا للأدواء الاجتماعية التي استشرت في مجتمعاتنا، فمتى سنحت الفرصة للشعراوي نراه يوظف محتوى القصة القرآنية توظيفًا ممتازًا في معالجة العديد من الموضوعات المهمة، التي من شأنها أن تخدم الدعوة، وهي الوظيفة التي قررها القرآن نفسه، في كون هذه القصص عِبْرَة، وهذا ما أشارت إليه آخر آية في سورة يوسف – عليه السلام – في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[2]

---

[1] الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٦/ص٤٤٧.

[2] سورة يوسف، الآية: ١١١.

**ملخص الفصل:**

وخلاصة القول في هذا الفصل أنَّ الشعراوي قد تناول موضوع «إبراء ساحة المظلوم» من خلال قصة يوسف – عليه السلام – في خواطره التي تناولت أحد مشاهد قصة (يوسف) عليه السلام، وذلك في قول الله تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)[1]

ولقد عالج الشعراوي هذا الموضوع من خلال الأفكار الآتية:

**(أ)ضرورة أن يُبَرِّئ المظلوم ساحته:**

لقد استوقف الشعراوي في هذا المشهد من قصة يوسف – عليه السلام – رفضه الخروج من السجن قبل أن يحقق الملك في أمر التهمة التي قرفت به، وتظهر براءته، ومن وحي هذا الموقف جسَّد

---

[1] سورة يوسف، الآيات: ٥٠-٥٢.

الشعراوي ضرورة أن يسعى المظلوم لإبراء ساحته؛ لما ينجم عن ذلك من آثار سلبية في محيط مجتمعه تؤثر عليه تأثيرًا بالغًا في الخطورة.

ولقد سعى الشعراوي إلى تأصيل معالجته باستحضاره من السنة النبوية المشرفة، ومن النص القرآني ما يدعم به معالجته؛ لكي يدعم هذا المبدأ الاجتماعي المهم، وهو ضرورة أن يُبَرِّئ المظلوم ساحته.

وهذه الأفكار التي بنى الشعراوي عليها موضوعه بملامحها الاجتماعية، قد رأينا أنَّ لها جذورًا في كتب قدامى المفسرين، غير أنه فصَّل في المضمون، وأسهب في المعالجة بطريقة تتناسب والجمهور المخاطب، حيث أنَّ الشعراوي لم يعمد إلى كتابة تفسير، بينما هو يدلي بخواطره عبر أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، وهذا مما يدفع به أحيانًا إلى تبنيه بعض القضايا وعرضها ومناقشتها وتفعيلها في واقع المجتمع الإسلامي.

ولقد أشار الشعراوي ضمنًا إلى وظيفة القصة القرآنية في حياة المجتمع الإسلامي بما تحمله في حناياها من معالجات لموضوعاتٍ مختلفة.

ولقد عدتُ إلى العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الحادي والأربعون؛ حتى نرى الفرق بين عرض القرآن لهذا المشهد من القصة، وعرض التوراة له، وألحقت هذا بالهامش.

**(ب) حماية المرء نفسه من مواطن الريبة والشبهات:**

ويتجلَّى في معالجة هذا العنصر ربط الشعراوي الموضوع القرآني بالواقع الإنساني، وربط موضوع القصة – كنموذج مجسد – بواقع المجتمع في نسيجٍ واحد متضافر...وهذا من منطلق أنَّ القرآن كتاب هداية بالدرجة الأولى، ويُعد هذا من أهم ملامح التفسير الموضوعي، كما أشار إلى هذا محمد باقر الصدر؛ ولأجل هذا رمى الشعراوي بظلال هذا المشهد من قصة يوسف – عليه السلام – على واقع المجتمع الإسلامي..وخرج عن إطار أحداث القصة...بما فجرت لديه من أفكار مهمة تمس الاجتماع الإنساني، فحلَّق في أجواء المضامين التي تكتنف الموضوع، فعرض لأهمية أن يقي الإنسان نفسه مواقف الشك والريبة، واستحضر لأجل هذا من الحديث النبوي ما يدعمه...فاستشهد بموقف الرسول – ﷺ – حينما دفع عن نفسه مظنة قد تظن به، ووصاياه الشريفة بتجنب مواقف الشُّبَه، متخللًا تلك الشواهد بمعالجته الاجتماعية الفعالة.

**(ج) الإحسان إلى المسيء نفع للمجتمع:**

وفي مشهد إعلان براءة يوسف – عليه السلام – لم يشتغل الشعراوي بتفاصيل هذا المشهد...بقدر اشتغاله بانتخابه منه ما يخدم معالجته...فيقف بنا عند استعمال القرآن لكلمة «الخطب» حتى يصور من خلالها عظم الموقف الذي تعرض له يوسف – عليه السلام – واهتزت له المدينة، وذلك دون أن يشير إلى الحذف الحاصل في المشهد وفائدته، وقد أشرت إلى هذا الحذف وفائدته.

ثم عرض الشعراوي لاعترافات امرأة العزيز، واختار الرأي الذي يقول بأنَّ قوله تعالى: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ...الآية)[1] هي من أقوال امرأة العزيز رغم اختلاف العلماء في هذا، غير أنه انتخب من جملة آراء العلماء هذا الرأي، ولقد عرضت آراء العلماء في هذه المسألة وألحقتها بالهامش.

ثم اتخذ الشعراوي من موقف اعترافات امرأة العزيز على نفسها وسيلة لتفجير ملمح اجتماعي جديد، وهو الإحسان إلى المسيء، وذلك «حتى لا يُحْرَم المجتمع من حسنات صاحب السيئة»[2]

---

[1] سورة يوسف، الآيات: ٥٢.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٩.

فدعا الشعراوي إلى إحسان المجتمع إلى المسيء؛ وذلك لأنَّ النفس البشرية ضعيفة، فربما يصرعها هواها، فتقترف إثمًا ما، وهذا لأنَّ نفوس العباد تأمرهم بما تهوى، وإن كان هواها في غير ما فيه رضي الله – تعالى – إلا من رحم الله تعالى، ولا أحد يَفرُّ من سلطان هوى نفسه عليه، ولذلك وجب أن نُعِينَ المسيء على تجاوز الخطأ الذي اقترفه بحسن التعامل معه، وحتى نعطي له الفرصة على إبدال السيئات بالحسنات...حيث أنَّ «الواحد منهم مشغول بضعفه الذي يلهبه، فيندفع لفعل الخيرات»[1]

ولقد استخلص الشعراوي هذا المعنى من إحسان يوسف – عليه السلام – لامرأة العزيز، فلقد تعفف يوسف – عليه السلام – أن يخصها بالذكر حينما طلب التحقيق في الأمر لإبراء ساحته، فحملها ذلك على أن تعود إلى صوابها، فتدلى بالحق، وتُبَرِّئ ساحة يوسف مما نُسِبَ إليه من تهم باطلة، وسياق خواطره يدل على ذلك، ولعله استقى هذا من الدقيقة – كما أسماها الرازي – التي أدلى بها الرازي حول هذا – وأَثْبتُّها في محلها.

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١١/ص٦٩٨٩.

ووصف الشعراوي أحوال النفس وتقلباتها من خلال حالة امرأة العزيز، وصَوَّر من خلالها مدى الضعف البشري الناجم عن الهوى والشهوة التي تقود النفس البشرية، من أجل هذا أوصى بضرورة أن نُحْسِنَ إلى المسيء، ولقد توجه الشعراوي بالحديث إلى جمهوره، وأدلى بمراميه الإصلاحية في نطاق المجتمع الإنساني.

●●●

opeikan.com